(٢٣)

"طِيب المغادرة"

فى شموخ البسطاء وعزة الأتقياء وطهارة الأنقياء، عاش بين الناس إلى أن غادر الحياة الدنيا تاركًا ابتسامته الرقيقة تذكارًا لكل من تعامل معه وأحبه. ومثلما كان صوته منخفضًا طوال حياته، كان رحيله أيضًا بلا ضوضاء وبدون صخب.

وعلى الرغم من كون الرحيل واحدًا فى معناه ومضمونه، إلا أنه لكلٍ منا طريقته فى الرحيل، والتى قدِّرت له لينفذها بوعي كامل، أو بدون أدنى التفات. ومع انطفاء الأضواء، وانقشاع ظلمة الليل، وتتابع الأيام، وتعاقب السنون، ينسى الناس وتلهيهم الدنيا وما فيها ومن فيها عمَّن رحل ومضى، ولا تبقى فى الأذهان سوى الذكريات التى يتم استحضارها من وقتٍ لآخر. فبعد أن كان الإنسان حاضرًا ويمكن استدعاؤه فى أي وقت للمثول أمامنا حيًا يُرزَق، يأتى الموت بلا استئذان فى أحيان كثيرة ليقضى عليه وعلى حياته، ومن ثمَّ يختفى الجسد الذى كان مفعمًا بالحيوية والقوة ويفنى وكأنه لم يكن شيئًا من قبل.

ولو كانت تلك هى النهاية لكل حياة على الأرض بما فيها حياة البشر، فلمَ إذن وُجدت الحياة من الأساس؟ ولماذا كل ما هو حسن له نقيضه الذي يجتمع معه ولا يفارقه؟ ولماذا هذا التزاوج الذى يحقق التكامل رغم ما يعتريه من تنافر فى بعض الأحيان؟ وهل العبث يستلزم كل تلك الدقة وكل هذا الانسجام؟ أم

أنها رحلة الإنسان مع الغيب، تصورًا وتفكرًا وتأملاً وأملاً ويقينًا وعلمًا، لتكون حياته على الأرض قوامها العمل الذى يدفع إليه الإيمان استعدادًا للحساب ثوابًا وعقابًا، وليكون موته تسليمًا باطمئنان لجلالٍ يفوق إدراكه، ولعظمةٍ تتخطى قدرة عقله المحدود على استيعابها؟!